الدكتور محمد عبد الله دراز

موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا أخذنا كلمة «الإسلام» بمعناها القرآني نجدها لا تدع مجالاً لهذا السؤال عن العلاقة بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية. فالإسلام في لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء. هكذا نرى نوحاً يقول لقومه: «وأمرت أن أكون من المسلمين» (سورة ١٠ آية ٧٢) ويعقوب يوصي بنيه: «ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون» (سورة ٢ آية ١٣٢) وأبناء يعقوب يجيبون أباهم: «نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون» (٢: ١٣٣) وموسى يقول لقومه: «يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين» (١٠: ٨٤) والحواريون يقولون لعيسى: «آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون» (٣: ٥٢) بل إن فريقاً من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن «قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين» (٢٨: ٥٣). وبالجملة نرى اسم الإسلام شعاراً عاماً يدور في القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عهد النبوة المحمدية. ثم نرى القرآن يجمع هذه القضايا كلها في قضية واحدة يوجهها إلى قوم محمد ويبين لهم فيها أنه لم يشرع لهم ديناً جديداً وإنما هو دين الأنبياء من قبلهم [«شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» (٤٢: ١٣)] ثم نراه بعد أن يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم ينظمهم في سلك واحد ويجعل منهم جميعاً أمة واحدة # لها إله واحد كما لها شريعة واحدة: «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» (٢١: ٩٢)

فما هذا الدين المشترك الذي اسمه الإسلام، والذي هو دين كل الأنبياء والمرسلين؟

إن الذي يقرأ القرآن يعرف كنه هذا الدين: إنه هو التوجه إلى الله رب العالمين في خضوع خالص لا يشوبه شرك، وفي إيمان واثق مطمئن بكل ما جاء من عنده على أي لسان وفي أي زمان أو مكان، دون تمرد على حكمه، ودون تمييز شخصي أو طائفي أو عنصري بين كتاب وكتاب من كتبه، أو بين رسول ورسول من رسله. هكذا يقول القرآن: «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين» (٩٨: ٥) ويقول: «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» (٢: ١٣٦) ويقول: «إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً» (٤: ١٥٠-١٥١)

هذا الإخلاص القلبي لله وهذا الإيمان المطمئن برسالاته يمثل الركن النظري

وهو أساس الإسلام. فإذا استقر هذا الأساس في جذر القلب، ظهرت نتيجته وثمرته العملية في اتباع أوامره، وترك محارمه، والتزام طريق الاستقامة في كل مظاهر الحياة الفردية والاجتماعية. وباجتماع الشطرين النظري والعملي تتحصل حقيقة الإسلام الكاملة وهي الانقياد لله ظاهرا وباطنا، بإخلاص العبادة له، وحسن المعاملة لخلقه. هذا هو الإسلام الكامل، والإسلام الشامل، الذي أمرنا الله به في القرآن، حيث يقول: "يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة" (٢: ٢٠٨).

فالإسلام إسلامان كلاهما ديني: إسلام أهل القمة، وإسلام جميع الخلائق.

وهذه الرسالة السماوية المشتركة بين كل الرسل كما بينها القرآن لا تخرج عن هذين الأصلين "وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون" (٢١: ٢٥) "لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط" (٥٧: ٢٥)

نقول إذاً إن الإسلام بمعناه القرآني الذي وصفناه لا يصلح أن يكون محلا للسؤال عن علاقته بينه وبين سائر الأديان السماوية؛ إذ لا يسأل عن العلاقة بين الشيء ونفسه، إذ هما هنا وحدة لا انقسام فيها ولا اثنينية.

غير أن كلمة "الإسلام" قد أصبح لها في عرف الناس مدلول معين، يكون تحديده بأنه هو مجموعة الشرائع والتعاليم التي جاء بها محمد، أو التي استنبطت مما جاء به؛ كما أن كلمة اليهودية أو الموسوية تخص شريعة موسى؛ وكلمة النصرانية أو المسيحية تخص شريعة عيسى، وما تشعب منها وما تفرع عنها، عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام.

فالسؤال الآن إنما هو عن الإسلام بمعناه العرفي الجديد، أعني عن العلاقة بين المحمدية وبين الموسوية ~~والعيسوية~~ والمسيحية.

وللإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نقسم البحث إلى مرحلتين:

"المرحلة الأولى" في علاقة الشريعة المحمدية بالشرائع السماوية ~~الأولى~~ السابقة وهي في صورتها الأولى لم تبعد عن منبعها، ولم يتغير فيها شيء بفعل الزمان ولا بيد الإنسان.

"المرحلة الثانية" في علاقتها بها بعد أن طال عليها الأمد، وطرأ عليها شيء من التطور.

"أما في المرحلة الأولى" فقد رأينا إلى أي حد يبلغ توقير المسلم لهذه الكتب المنزلة ولحاملي رسالتها، دون تفرقة بين شيء منها، ولا بين أحد منهم؛ ورأينا أن الإيمان بأنها كلها من عند الله، وبأن كل ما فيها حق وعدل وحكمة، ركن أساسي لا يكون المسلم مسلما إلا به؛ فالقرآن يعلمنا أن كل رسول يرسل، وكل كتاب ينزل، جاء مصدقا ومؤكدا لما قبله: فالإنجيل مصدق ومؤيد للتوراة؛ والقرآن مصدق ومؤيد للإنجيل وللتوراة جميعا ولكل ما بين يديه من الكتب (٥: ٤٦، ٤٨) وقد أخذ الله الميثاق على كل نبي إذا جاءه رسول مصدق لما معه أن يؤمن به وينصره (٣: ٨١)

غير أن هاهنا سؤالا يحق للسائل أن يسأله:

أليست قضية هذا التصادق الكلي بين الكتب السماوية بنقلها وتطابقها مع تصديق الرسل بعضهم بعضا أن تكون الكتب اللاحقة إنما هي تجديد وتذكير بالرسالات السابقة، وأن تكون الكتب المتأخرة إنما هي تجديد وإعادة وتكرير للمتقدم، لأنها ترجمة لها أو شبه ترجمة فلا تتبدل فيها معنى ولا تغير منها حكما؛ إذ كيف يقال إنها تصدق من بينما هي تبدل أو تعدل. وإذا كان من قضية التصادق الكلي بين الكتب ألا يغير المتأخر منها شيئا من المتقدم، فهل الواقع هو ذلك؟

الجواب: ليس الواقع ذلك؛ فقد جاء الإنجيل بتعديل بعض أحكام التوراة؛ إذ أعلن عيسى أنه جاء ليحل لبني إسرائيل بعض الذي حرم عليهم (٢ : ٥٠) وكذلك جاء القرآن بتعديل بعض أحكام الإنجيل والتوراة؛ إذ أعلن أن محمدا جاء ليحل للناس كل الطيبات، ويحرم عليهم كل الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم (٧ : ١٥٧)

ولكن يجب أن يفهم أن هذا وذاك لم يكن من المتقدم المتأخر نقضا للمتقدم، ولا إنكارا لحكمة أحكامه في إبانها؛ وإنما كان وقوفا بها عند وقتها المناسب، وأجلها المقدر... مثل ذلك مثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل في الطور الأول من حياته، فقرر قصر غذائه على اللبن، وجاء الثاني إلى الطفل في مرحلة التالية فقرر له طعاما لبنيا وطعاما نشويا خفيفا، وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها فأذن له بغذاء قوي كامل فهل كان قرار كل منهم تخطئة لقرار صاحبه أم أن هنالك اعترافا ضمنيا بأن كلا منهم كل واحد منهم ومن صاحبيه كان موفقا كل التوفيق في علاج الحال التي عرضت عليه، في حدود ملابساتها؟... نعم إن هنالك قواعد صحية عامة في النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها لا تختلف باختلاف الأسنان، فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين.

هكذا الشرائع السماوية كلها صدق وعدل في جملتها وتفصيلها، وكلها يصدق بعضها بعضا من أولها إلى آخرها؛ ولكن هذا التصديق على ضربين: تصديق للقديم مع الإذن ببقائه واستمراره؛ وتصديق له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية، وإبداله فيما يستقبل بما هو أوفق وأنسب... ذلك أن الشرائع السماوية تحتوي على نوعين من التشريعات: (تشريعات خالدة) لا تتبدل بتبدل الأصقاع والأوضاع (كالوصايا التسع (١) ونحوها)، فإذا فرض أن أهل شريعة سابقة تناسوا هذا الضرب من التشريع جاءت الشريعة اللاحقة بمثله أي أعادت مضمونه تذكيرا به وتأكيدا له؛ (وتشريعات موقوتة) بآجال طويلة أو قصيرة، فهذه تنتهي بانتهاء وقتها، وتجيء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة... وهذا والله أعلم هو تأويل قوله تعالى "ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها" فهو بيان مقسم موزع على طريقة اللف والنشر المرتب: الإتيان بخير منها راجع إلى النسخ؛ والإتيان بمثلها راجع إلى الإنساء؛ فالحكم أو التشريع الذي يعلم الله أنه قد استنفد أغراضه، وأنه أصبح لا يصلح للبقاء والاستمرار ينسخه الله أي يوقف تطبيقه، ويجيء بدله بتشريع غيره، أي أليق بالوضع الجديد؛ والحكم أو التشريع الذي ينساه الناس وكان حقه ألا ينسى يجيء الله بمثله ليبقى العمل به مستمرا إن شاء الله... ولولا اشتمال الشريعة السماوية على الأغذية النوعية ما اجتمع فيها العنصران الضروريان لسعادة

(١) نقول: الوصايا التسع، ولا نقول الوصايا العشر، لأن الوصية العاشرة في التوراة، وهي تحريم العمل في يوم السبت، كانت تشريعا محليا مؤقتا؛ وقد بين هذا التوقيت على لسان عيسى ومحمد عليهما السلام.

Scanned with CamScanner

لسعادة المجتمع البشري: عنصر الاستقرار الذي يربط حاضر البشرية بماضيها، وعنصر الإنشاء والتجديد، الذي يعدّ الحاضر للتطور والرقي اتجاهاً الى مستقبل أفضل وأكمل ...

ونحن إذا نظرنا نظرة فاحصة الى سير التشريع السماوي من خلال الشرائع الثلاث نجد فيها هذين العنصرين واضحين كل الوضوح؛ إذ نجد كل شريعة جديدة تحافظ على الأسس الثابتة التي أرستها الشريعة السابقة، ثم تزيد عليها ما يشاء الله زيادته:

١ – نرى شريعة التوراة مثلا قد عنيت بوضع المبادئ الأولية لقانون السلوك: «لا تقتل» «لا تسرق» الخ ونرى الطابع البارز فيها هو طابع تحديد الحقوق وطلب العدل والمساواة بينها ... ثم نرى شريعة الانجيل تجيء بعدها فتقرر هذه المبادئ الأخلاقية وتؤكدها، ثم ترقى فتزيد عليها آداباً مكملة: «لا تراءوا الناس بفعل الخير» «أحسن الى من أساء اليك»؛ ونرى الطابع البارز فيها هو طابع التسامح والرحمة والايثار والاحسان ... وأخيرا تجيء شريعة القرآن فنراها تقرر المبدأين كليهما في نسق واحد: «إن الله يأمر بالعدل والاحسان» (١٦ : ٩٠) مقدّرة لكل منهما درجته في ميزان القيم الأدبية، مميزة بين المفضول منهما والفاضل: «وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله» (٤٢ : ٤٠) «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به؛ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين» (١٦ : ١٢٦)؛ ثم نراها وقد أضافت اليها فصولا جديدة صاغت فيها قانون آداب اللياقة، ورسمت بها منهج السلوك الكريم في المجتمعات الراقية: في التحية، والاستئذان، والمجالسة، والمخاطبة، والاحتشام، الى غير ذلك ... كما نراه في سور النور والحجرات والمجادلة

هذا مثال من أمثلة الجمع في سير التشريعات السماوية بين عنصر المحافظة على القديم الصالح، وعنصر الأخذ بالجديد الأصلح. والأمثلة كثيرة لا يتسع لها نطاق هذه المحاضرة

٢ – ومثال آخر: كان موسى عليه السلام في دعوته لقومه يرغبهم في اتباع تعاليمه ووصاياه بما سوف يكون لها من أثر صالح في حياتهم: سعة في الرزق، خصوبة في الأرض والحيوان والانسان، عافية في الأبدان، انتصار على الأعداء ... فلما جاء عيسى عليه السلام ترقى بهم درجة، إذ حوّل أنظارهم من الأرض الى السماء وجعل يرغبهم في العمل الصالح بما سوف يكون له من جزاء في ملكوت الله ... وأخيرا جاء محمد عليه السلام، فأكد هذين الوعدين الكريمين: «للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، ولدار الآخرة خير» (١٦ : ٣٠) ولكنه صعد بالقلوب المؤمنة الى مرقى أعلى، بل الى المرقى الأعلى بإطلاق، إذ جعل الهدف الحقيقي الذي ينبغي أن يتطلع اليه المتقي ليس هو متاع الدنيا ولا ثواب الآخرة، ولكنه طلب رضوان الله، وابتغاء وجه ربه الأعلى: «وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله» (٢ : ٢٧٢) «ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما» (٤ : ١١٤)

٢ – ومثال ثالث: كانت الشريعة الموسوية ترمي في جملتها الى تكوين جماعة مؤمنة، راهبة متماسكة، شاعرة بفرديتها في وحدة وطنها، ووحدة دينها وشريعتها. وكانت هذه الجماعة محصورة في نطاق ضيق، محدودة بحدود الدم والبيئة؛ لا تتناول إلا أبناء اسرائيل ومن يساكنهم في ديارهم؛ فلم يكن بينهم وبين جيرانهم الذين في خارج هذه الحدود ولاء ولا تبادل حقوق ... فلما جاءت الشريعة المسيحية

Scanned with CamScanner

— وكانت رسالته موجهة إلى هذه الأمة الإسرائيلية نفسها بعد أن تكونت نواتها واستقلت على قدميها —
بدأت تتوجه أنظار هذه الجماعة إلى خارج حدودها، وأخذت تحرك فيها العاطفة الرحيمة التي لا تفرق
في المعاملة بين إنسان وإنسان.. هكذا قال لهم عيسى عليه السلام في موعظته لهم على الجبل: «إذا
أنتم لم تحبوا إلا من يحبكم فأي فضل تستحقون؟... وإذا أنتم لم تحيوا إلا إخوانكم فأي جميل تصنعون؟»
ولم يطل به المقام بينهم لكي ينظم لهم هذه العلاقات الإنسانية؛ ولكنه مهد بهذا النداء الجميل تمهيدا
كافيا لرسالة جامعة يأتي كتابها ~~خطابها شاهدها~~ على أنها ليست موجهة لأمة معينة من الأمم، ولا
لرقعة محدودة من الأرض، ولكنها «ذكر للعالمين» (٢٨: ٨٧) «نذيرا للبشر» (٧٤: ٣٦)
ومن ثم فإن تشريعها، فتضيف إلى القوانين الداخلية المنظمة للأمة، قانونا ينظم شؤونها مع سائر الأمم
في السلم والحرب، والهدنة والصلح، والمحالفات والمعاهدات ... تلك هي الشريعة الإسلامية التي بلغت
بها الرسالات السماوية أقصى مداها، إذ أصبحت رسالة عالمية إنسانية بعد أن كانت رسالات إقليمية متفرقة.

هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات متراكبة في بنيان الدين والأخلاق
وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أنها أكملت البنيان وملأت ما بقي فيه من فراغ.
وأنها في الوقت نفسه كانت بمثابة ~~[illegible]~~ حجر الزاوية الذي ~~[illegible]~~
~~[illegible] السلسلة كلها على تباعد ما بينها وتفاوتها في الزمان والمكان~~. وصدق الله حين وصف
خاتم أنبيائه بأنه «جاء بالحق وصدق المرسلين» (٣٧: ٣٧) وحين وصف اليوم الأخير من أيام رسالته
بأنه كان إتماما للنعمة وإكمالا للدين: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي» (٥: ٣)
وصدق رسول الله حين صور الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير: «مثلي ومثل الأنبياء
من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة، فجعل الناس ~~[illegible]~~ يطوفون
به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» (البخاري
كتاب المناقب، باب خاتم النبيين)

إنها إذاً سياسة حكيمة رسمتها يد العناية الإلهية، لتربية البشرية تربية تدريجية لا طفرة
فيها ولا قفزة، ولا توقف فيها ولا رجعة، ولا تناقض ولا تعارض، بل تصاعد وتكامل، وثبات واستقرار،
ثم نمو ~~[illegible]~~ واكتمال وازدهار.

وننتقل الآن إلى المرحلة الثانية:
(المرحلة الثانية) في ~~[illegible]~~ بحث العلاقة بين الشريعة المحمدية والشرائع السماوية بعد أن طال الأمد
على هذه الشرائع، فنالها شيء من التطور والتحوير:
رأينا في المرحلة السابقة كيف كان القرآن يعلن عن نفسه دائما أنه جاء "مصدقا لما بين يديه من
الكتاب"... ونزيد الآن أن القرآن أضاف إلى هذه الصفة صفة أخرى؛ إذ أعلن أنه جاء أيضا
«مهيمنا» على تلك الكتب (٥: ٤٨) أي حارسا أمينا عليها... ومن وظيفة الحارس الأمين
على تلك الكتب ألا يكتفي الحارس بتأييد ما خلده التاريخ فيها من حق وخير؛ بل عليه الحرص ذلك أنه يحميها من الدخيل الذي
عسى أن يضاف إليها بغير حق، وأن يبرز ما تمس إليه الحاجة من الحقائق التي عساها أن تكون قد أخفيت منها

وهكذا كان من مهمة القرآن أن ينفي عنها الزوائد، وأن يتحدى من يدعي وجودها في تلك الكتب "قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين" (٣ : ٩٣) كما كان من مهمته أن يبين ما ينبغي تبيينه مما كتموه منها "يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب" (٥ : ١٥).

∴

وجملة القول أن علاقة الإسلام بالديانات السماوية في صورتها الأولى هي علاقة تصديق وتأييد كلي؛ وأن علاقته بها في صورتها المتطورة علاقة تصديق لما بقي من أجزائها الأصلية، وتصحيح لما طرأ عليها من البدع والإضافات الغريبة عنها.

هذا "الطابع" الذي تتسم به العقيدة الإسلامية، وهو طابع الإنصاف والتمحيص **والتبصر**، الذي يتقاضى كل مسلم ألا يقبل جزافا، ولا ينكر جزافا، وأن يصدر دائما عن بصيرة وبينة - في قبوله ورده - ليس خاصا بموقفها من الديانات السماوية، بل هو شأنها أمام كل رأي وعقيدة، وكل شريعة وملة؛ حتى الديانات الوثنية نرى القرآن يحللها ويفصلها، فيستبقي ما فيها من عناصر الخير والحق والسنة الصالحة؛ وينحي ما فيها من عناصر الباطل والشر والبدعة.

أفهذا هو موقف الإسلام من الديانات الأخرى من الوجهة النظرية.

(أما بعد) فقد كان حديثنا حتى الآن حديثا عن علاقة الإسلام بغيره من الديانات من حيث قبوله لها أو مخالفته لها، كلا أو بعضا ... وكان هذا كله حديثا عن موقفه منها من الوجهة النظرية.

وحقيق أن نبحث عن موقفه من الوجهة العملية:

... هل يقف منها موقف السكوت عليها، والإغضاء عنها، والاكتفاء بأثر الواقع؟

... أم هل يقف موقف المحارب المقاتل، الذي لا يهدأ له بال حتى يطهر الأرض منها ومن أهلها؟

قليل من الكتاب الغربيين يجيبنا بالشق الأول؛ حتى قال قائل منهم (أجوتيبي في كتابه أخلاق المسلمين وعوائدهم): إن المسلم أناني، وإن الإسلام يشجع على هذه الأنانية؛ فالمسلم لا يعنيه ضلال غيره أم اهتدى، سعد أم شقي، ذهب إلى الجنة أم إلى السعير.

وأكثر الكاتبين يجيبون بالشق الثاني؛ فالإسلام في نظر هؤلاء يريد أن يفرض نفسه على الناس بحد السيف، والقرآن في نظرهم يأمر المسلم بأن يضرب عنق الكافر حيثما لقيه...

الواقع أن كلا الفريقين لم يصب كبد الحقيقة في تصويره لموقف الإسلام

ليس الإسلام فاترا ولا منطويا على نفسه كما زعم الأولون؛ فالدعوة إلى الحق والخير ركن أصيل من أركان الإسلام؛ والنشاط في هذه الدعوة فريضة مستمرة في كل زمان ومكان: يأمر الله نبيه بتبليغ كلامه، وبأن يبذل جهده في هذا التبليغ: "وجاهدهم به جهادا كبيرا" (٢٥ : ٥٢) ويحرض القرآن المؤمنين على هذه الدعوة: "ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله" (٤١ : ٣٣) بل يجعل الفلاح والنجاة وقفا على هؤلاء الدعاة: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وأولئك هم المفلحون" (٣ : ١٠٤)

"إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر" (١٠٣ : ٢-٣)

~~فجعلها دعوة بالحجة والنصيحة، في رفق ولين: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة»~~

ولكن الإسلام في الوقت نفسه ليس ~~ثم ليس الإسلام~~، كما يزعم الأكثرون، عنيفا ولا متعطشا للدماء؛ وليس من هدفه ~~الإسلام~~ أن يفرض نفسه على الناس فرضا حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة؛ فنبي الإسلام هو أول من يعرف أن كل محاولة لفرض ديانة عالمية وحيدة هي محاولة فاشلة، بل هي مقاومة لسنة الوجود، ومعاندة لإرادة رب الوجود: «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة. ولا يزالون مختلفين» (١١: ١١٨) «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين» (١٢: ١٠٣) «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا. أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» (١٠: ٩٩) «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء» (٢٨: ٥٦). ومن هنا نشأت القاعدة الإسلامية المحكمة المبرمة في القرآن، قاعدة حرية العقيدة «لا إكراه في الدين» (٢: ٢٥٦)؛ ومن هنا رسم القرآن أسلوب الدعوة ومنهاجها فجعلها دعوة بالحجة والنصيحة في رفق ولين: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» (١٦: ١٢٥) على أن الإسلام لا يكتفي منا — بعد قيامنا بواجب النصح والإرشاد — ولا يكتفي منا بهذا الموقف العملي السلبي، وهو عدم إكراه الناس على الدخول فيه؛ بل يتقدم بنا إلى الأمام فيرسم لنا خطوات إيجابية نكرم بها الإنسانية في شخص غير المسلمين:...

هل ترى أسمى وأنبل من تلك الوصية الذهبية التي يوصينا بها القرآن في معاملة الوثنية التي هي أبعد الديانات عن الإسلام، فضلا عن الديانات التي تربطنا بها أواصر الوحي السماوي. اقرأ في سورة التوبة: «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه». فأنت تراه لا يكتفي منا ~~يأمرنا~~ بأن نجير هؤلاء المشركين ونؤويهم ونكفل لهم الأمن في جوارنا فحسب؛ ولا يكتفي منا بأن نرشدهم إلى الحق ونهديهم طريق الخير وكفى؛ بل يأمرنا بأن نكفل لهم كذلك الحماية والرعاية في انتقالهم حتى يصلوا إلى المكان الذي يأمنون فيه كل غائلة...

ثم هل ترى أعدل وأرحم، وأحرص على وحدة الأمة وتماسكها من تلك القاعدة الإسلامية، التي لا تكتفي بأن تكفل لغير المسلمين في بلاد الإسلام حرية عقائدهم وعوائدهم، وحماية أشخاصهم وأموالهم وأعراضهم، بل تمنحهم من الحرية والحماية، ومن العدل والرحمة قدر ما تمنحه للمسلمين في الحقوق العامة: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».

ثم هل ترى أوسع أفقا وأرحب صدرا، وأسمى إلى الكرم، وأقرب إلى تحقيق السلام الدولي، والتعايش السلمي بين الأمم، من تلك الدعوة القرآنية، التي لا تكتفي في تحديد العلاقة بين الأمم الإسلامية، وبين الأمم التي لا تدين بدينها، ولا تتحاكم إلى قوانينها — لا تكتفي في تحديد هذه العلاقة — بأن تجعلها مبادلة سلم بسلم: «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها» (٨: ٦١) «فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا» (٤: ٩٠) بل تندب المسلمين إلى أن يكون موقفهم من غير المسلمين موقف رحمة وبر، وعدل وقسط: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم. إن الله يحب المقسطين» (٦٠: ٨)

وليس هذا هو كل شيء في تحديد الموقف الإنساني النبيل الذي يقفه الإسلام عمليا من غير أتباعه

والضمير المتكلم يكتفي بكلمة واحدة : لا يكفي خطة واحدة بعدة

أن الإسلام ~~...~~ يده لمصافحة أتباع كل ملة ونحلة ~~للتعاون معهم على~~ في سبيل التعاون على إقامة العدل، ونشر الأمن، وصيانة الدماء أن تسفك، وحماية الحرمات أن تنتهك، ولو على شروط يبدو فيها بعض الإجحاف ... ناهيك بالمثل الرائع الذي ضربه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى، حين قال في الحديبية : «والله لا تدعوني قريش إلى خطة توصل بها الأرحام وتعظم فيها الحرمات إلا أعطيتهم إياها»

فهذا هو مبدأ التعاون العالمي على السلام، يقرره نبي الإسلام، ورسول السلام.

في ٢٢ من ربيع الثاني ١٣٧٧ هـ
(١٤/ ١١/ ١٩٥٧ م)

محمد عبد الله دراز